ميزان الجرح والتعديل (*)

٢

(جواب شبهة)

رب قائل يقول : كيف لا يفسق هؤلاء وقد خالفوا بتأويلهم النصوص من الكتاب والسنة ؟

فنقول : قدمنا ما يمنع تسميتهم فسقة شرعا ولغة ، ولذا جاء في مسلّم الثبوت — من كتب الاصول — ما مثاله : لك ان تمنع كون المتدين من اهل القبلة فاسقاً بالعرف المتقدم الذي عليه القرآن الكريم — وهو شموله للكافر والمؤمن المرتكب الكبيرة اه وقال حجة الاسلام الغزالي في الاحياء : مهما اعترضت على القدري في قوله « الشر ليس من الله » اعترض عليك القدري ايضا في قولك « الشر من الله » وكذلك في قولك « ان الله يرى » وفي سائر المسائل ، اذ المبتدع محق عند نفسه ، والمحق مبتدع عند المبتدع ، وكل يدعي انه محق وينكر كونه مبتدعا اه

وبالجملة فهم مخالفون بنظر غيرهم ، واما عند انفسهم فغيرهم هو المخالف وهم الموافقون ، وحاشا المؤمن عالم ان يخالف كتابا او سنة عامدا متعمدا ، فهم مجتهدون مثابون اذ لم يألوا جهدا فيما ذهبوا اليه ، وان كنت لا تقول به وترى الحجة فيما انت عليه ، على ان ما تسميه انت نصا هم يرونه ظاهرا ، اذ دعوى نصية الشيء ليست بالامر اليسير — لان النص هو القاطع

(*) لعالم الشام الشيخ جمال الدين القاسمي

في معناه ، المفيد لليقين في فحواه ، وهـذا انما يكون في محكمات الدين ، واصوله التي لم يختلف فيها الفرق كلها ، واما ما عداه فكلها ظواهر ، وقد يراها البعض باجتهاده نصا ، وليس اجتهاد مجتهد بقاضٍ على اجتهاد آخر . وعلى من يريد تحقيق هذا ان يراجع مطولات الخلاف ، ويطالع مآخذ المجتهدين ، ومن انفع ما الف في هـذا الباب كتاب (رفع الملام ، عن الائمة الاعلام) لشيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله فانه جدير لو كان في الصين ان يرحل اليه ، وان يعض بالنواجذ عليه ، يرحم الله من اقام المعاذير للائمة ، وعلم ان سعيهم انما هو الى الحق والهدى ـ كما اسلفنا وبالله التوفيق

(جواب شبهة اخرى)

يزعم بعضهم بأنه : يحتمل ان يكون الراوي تحمل عن المبدّع قبل تمذهبه بذلك المذهب ، وهذا جهل بمذاهب الرواة ، ومشارب الرجال ، فان كل من الف في نقـد الرجال لم يذكر في المشاهـير منهم انه كان على مذهب كذا ، او ان الحافظ الفلاني تحمل عن فلان قبل تمذهبـه بمذهب كذا ، ومثل هـذا انما يؤخذ عن النقلة الاثبات كالمصنفين في احوال الرجال ، ولا يمكن الاجتهاد فيه بحال من الاحوال ، ولذا تراهم يقولون في ترجمة الراوي : كان خارجيا . ونحو ذلك قولا واحـدا . وحبذا ان يكون ما ذكره مأثورا عن امام مؤرخ مشهور . واما القول بالاحتمال ، فاذا فتح اورث الاضمحلال ، لكل ما يدول عليـه في الاستدلال ، ـ ومثل ذلك ما يقال : يحتمل ان يكون روى عنه وهو غير

عالم بما هو عليه من فساد العقيدة ! فهذا يزيد عما قدمنا من الجهل بمذاهب الرواة تجهيل أئمة الحديث ، ووصمهم بما هم برآء من الغباوة والبلاهة ، وانهم يتحملون عمن لا يعرفون مذهبه ولا مشربه ، وانهم كحاطب ليل ، نعوذ بالله من ذلك . وأي عاقل يجرأ على مثل ذلك في البخاري صاحب لتاريخ في الرجال ؟ بل من دونه من ارباب السنن وغيرهم ممن تكلم في الجرح والتعديل ، وميز بين صحيح الحديث وضعيفه ـ لثقة رجاله أو ضعفهم . وهل يعقل في صحاح ، وسنن ، ومسانيد ، وموطآت ، عليها مدار أدلة الاحكام ، وحجج الفروع ، صنفت على الاسانيد المنوعة والمكررة بالاسماء والكنى والالقاب = ان يكون جامعوها لا يدرون مشرب رجالها ولا ما يتحملونه ـ مع ان العامي والامي نراه اذا خدم عالما لا يخفى عليه مشربه ومذهبه ورأيه وفكره . فكيف بعالم مؤلف ، لا بل بامام مجتهد يستنبط الاحكام من الاحاديث ويترجم عليها ، ويزاحم من تقدمه من الائمة في التخريج والرد والاستدراك والتفريع والتأصيل؟ الا يدري مذهب رجال اسناده ونحلتهم ـ وهم عمدته في الاستدلال ، وركنه في الاحتجاج ؟؟ بلى ! ثم بلى ! وهو اجلى من ان يبرهن عليه ، او يرد على من كابر فيه . ولقد كان علم الجرح والتعديل ، ومعرفة طبقات الرجال وتراجمهم من اوائل ما يدريه طلاب الحديث ومريدو التحمل عن الحفاظ ، ولكن من اين يدري ابناء هذا الجيل ، ما كان عليه السلف من فنون التحصيل ، وقد اندرست تلك العلوم ، ولم يبق منها ولا الرسوم ، فانا لله وانا اليه راجعون

وأما قول بعضهم : فكيف يستدل باخراج الشيخين على عدم جواز

المعاداة ـ مع قيام هذه الاحتمالات؟ وكيف يسوغ للانسان ان يتمسك بالمحتمل الذي لا تقوم به حجة ؟ فقد علمت سقوط هذه الاحتمالات ، وانها اشبه بالاوهام والخيالات ، والتلاعب في الحقائق الواضحات . والمحتمل الذي تقوم به حجة هو الذي يتطرق اليه احتمال معقول ، أو تأويل مقبول ، جار على قوانين التأويلات ، والاوجه المعروفة في نظائره . واما احتمال في مقابلة حقيقة ثابتة ، وأمر واضح ، فلا يقال له احتمال ، وانما هو تلاعب وهوس خيال ، يقول ائمة الجرح والتعديل في كتبهم عن راو ـ ممن خرج له الشيخان أو احدهما ـ انه شيعي ، أو خارجي ، أو قدري ، أو مرجئ ، ثم يأتي من يريد ان ينقض هذا بالاحتمال ، وهو لم يضرب في هذا الفن بسهم ، ولا يمكن ان يرجع اليه في رأي ولا علم ، كيف لا وقد اجتمعوا على الرجوع الى أئمة الفن في هذا الباب ، لانه أمر لم يبق فيه مجال ولا نظر ولا احتمال ، وهذا من البديهيات الغنية عن الحجة والبرهان

(وقع وهم في عبارة للبخاري)

وأما زعم ان قول البخاري في جزء رفع اليدين : كان زائدة لا يحدث الا أهل السنة اقتداء بالسلف : يخالف ما استنبطناه ـ فعجيب جداً لانه لا شاهد فيه ، ولا يناسب بحثنا حتى يخالفه ، لان زائدة رحمه الله كان يمتنع عن تحديث غير أهل السنة ـ أي إسماعهم الحديث واقرائهم اياه ـ وذلك في التلاميذ منهم والمبتدئين في طلب الحديث الذين يبغون التلقي والسماع ـ وقد انتموا الى غير مذهب أهل السنة ، فكان زائدة يتجافى تحديثهم اقتداء بمن رآه من سلفه كذلك ، ولا منازعة في الوجدانيات

ولا يكلف المرء مالا يطيقه ، فمن كانت نفسه لا تحب إسماع من كان كذلك ، فله الخيرة ولا جناح عليه في ترك الاسماع ، لا سيما لتلاميذ لم يتأهلوا بعد للنظر والوقوف على التحقيق ، فتلهم انما يكون مقلداً لا مجتهدا . وأما حفاظ شيوخ ، ذوو علم ورسوخ ، اوتوا من العلم والفضل ما أهلهم للتحمل عنهم ، والاستفادة من علمهم ، بحيث طارت شهرتهم ، وتفوقوا على غيرهم ، فلا دخل لكلام زائدة فيهم ، ولا يشملهم مشربه ، وهكذا نحن نقول : لا ينبغي لاستاذ ان يشرح صدره لتلاميذ اغرار ، انتحلوا غير ما يراه الحق بدون نظر أو فكر ، بل تقليدا أو اتباعا لكل ناعق

وأما من بلغ مرتبة الرسوخ والافادة ، وكان على جانب عظيم من العلم ، وانتحل ما انتحل عن اجتهاد ونظر ، فلا يرتاب أحد في العناية بالاخذ عنه ، والتلقي منه ، كما فعل الائمة امثال البخاري واشياخه ، فكلام زائدة من وادٍ ، وما نقوله من واد آخر . وهكذا يقال فيمن حكى عنهم من المرجئة من أهل بلخ ، وأما قوله : ولقد رأينا غير واحد من أهل العلم يستتيبون أهل الخلاف ، والا اخرجوهم من مجالسهم . فهو يعني به من ذكرناه من التلاميذ لقوله « والا أخرجوهم » وهل يخرج الا المتعلم الضعيف في العلم والفهم ، المتطفل على ما ليس له بأهل ؟ وشتان بين من يخرج من مجلس الحديث من أهل الخلاف وبين من يرحل اليه ويتحمل عنه منهم ـ كرجال الشيخين وغيرهما من هؤلاء ، ولو اطرد الابتعاد عن هؤلاء أو إبعادهم لما تلقى عنهم امثال الشيخين ، وخلد اسماءهم ومرويهم في أصح الكتب بعد التنزيل الكريم . وقد يكون مراد البخاري بأهل الخلاف أهل الرأي جموداً وتقليدا المؤثرين آراء الفقهاء على صحيح السنة ـ لان كتابه المذكور

وهو « جزء رفع اليدين » في مناقشة أهل الرأي وحجهم بصحيح السنة على رأيهم . وقد تجافى أرباب الصحاح الرواية عن أهل الرأي (١) فلا تكاد تجد اسما لهم في سند من كتب الصحاح أو المسانيد أو السنن، وان كنت أعدُّ ذلك في البعض تعصبا ، اذ يرى المنصف عند هذا البعض من العلم والفقه ما يجدر أن يحمل عنه ، ويستفاد من عقله وعلمه ، ولكن لكل دولة من دول العلم سلطة وعصبة ذات عصبية ، تسعى في القضاء على من لا يوافقها ولا يقلدها في جميع مآتيها ، وتستعمل في سبيل ذلك كل ما تقدر لها من مستطاعها كما عرف ذلك من سير طبقات دول العلم ، ومظاهر ما أوتيته من سلطان وقوة . ولقد وجد لبعض المحدثين تراجم لأئمة أهل الرأي يخجل المرء من قراءتها فضلا عن تدوينها ، وما السبب الا تخالف المشرب على توهم التخالف ، ورفض النظر في المآخذ والمدارك ، التي قد يكون معهم الحق في الذهاب اليها ، فان الحق يستحيل ان يكون وقفاً على فئة معينة دون غيرها ، والمنصف من دقق في المدارك غاية التدقيق ثم حكم بعد .

---

(١) كالامام ابي يوسف والامام محمد بن الحسن فقد لينهما أهل الحديث — كما ترى في ميزان الاعتدال ، ولعمري لم ينصفوهما وهما البحران الزاخران ، وآثارهما تشهد بسعة علمهما وتبحرهما ، بل بتقدمهما على كثير من الحفاظ . وناهيك كتاب الخراج لابي يوسف وموطأ الامام محمد . ثم كان ولع جامعي السنة بمن طوف البلاد، واشتهر بالحفظ ، والتخصص بعلم السنة وجمعها ، وعلماء الرأي لم يشتهروا بذلك لاسيما وقد اشيع عنهم انهم يحكمون الرأي في الاثر ، وان كان لهم مرويات مسندة معروفة ، رضي الله عن الجميع ، وحشرنا واياهم مع الذين انعم الله عليهم

ومما نعده تعصبا ماحكاه الامام البخاري في «جزء رفع اليدين» المذكور من اخراج اهل الخلاف من مجالس الحديث حتى يستتابوا، وحمل قاضي مكة سليمان بن حرب على الحجر على بعض علماء الرأي من الفتوى، وما ذلك الا من سلطة دولة الاثريين وقتئذ، وقيامهم بالتشديد ضد خصومهم، ونبذ التسامح الذي كان عليه الصحابة والتابعون في ان يفتي كل بما يراه بعد بذل جهده في المسألة دون تعنيف او اضطهاد — لا جرم ان سنة كل قوم آنسوا من انفسهم قوة وسلطانا ان يستعملوا لبث مذهبهم ونشره هيمنة الحاكم وسيطرته، ولا سيما اذا كان منهم وعلى شاكلتهم وهو مستبد في علمه وما يمضيه فحدث هنالك ولا حرج. انظر الى القدرية لما دالت لهم دولة العلم ايام المأمون ماذا جرى منهم مع من لم يقل بشرهم ولم يستجب لدعوتهم، فقد ضربت أئمة واهينوا وسجنوا الاعوام وأوذوا مما دونه التاريخ واحصاه على هؤلاء المتعصبين، وكان نقطة سوداء في تاريخ حياتهم، وان كانوا يزعمون مقاومة الحشو والجمود، وتنوير الاذهان بعلوم الاوائل مما اخذوا بتعريبه، وجهدوا في نشره، الا ان الغلو كان رائدهم، والبطش قائدهم، ولكن هي السكرة، التي يذهب معها صحيح الفكرة (اعني سكرة الدولة والغلبة، والسلطة والقوة) فما من دولة الا ونقم عليها شيء من ذلك — كما يدريه من سبر اخبار الدول وفلسفة حياتهم، ومظهر آرائهم وآمالهم

وكذلك قل عن الفتنة التي فر من اجلها امام الحرمين من العراق الى الحجاز حينما دالت دولة الحنفية، وثارت عصبيتهم على الشافعية

والاشعرية. قال التاج السبكي في طبقاته[1] في ترجمة الامام ابي سهل الشافعي: انه لما بلغ من سمو المقام ان ارسل اليه السلطان الخلع وظهر له القبول عند الخاص والعام، حسده الاكابر وخاصموه، فكان يخصمهم ويتسلط عليهم (قال) فبدا له خصوم واستظهروا بالسلطان عليه وعلى اصحابه (قال) وصارت الاشعرية مقصودين بالاهانة والمنع عن الوعظ والتدريس، وعزلوا من خطابة الجامع ـ (قال) وتبع من الحنفية طائفة اشربوا في قلوبهم الاعتزال والتشيع، فخيلوا الى اولي الامر الازراء بمذهب الشافعي عموما، وبالاشعرية خصوصا ـ (قال) وهذه هي الفتنة التي طار شررها، وطال ضررها، وعظم خطبها، وقام في سبب اهل السنة خطيبها، فان هذا الامر ادى الى التصريح بلعن اهل السنة في الجمع، وتوظيف سبهم على المنابر، وصار لابي الحسن الاشعري بها اسوة بعلي بن ابي طالب رضي الله عنه، والمستعلي اونئك في المجامع، فقام ابو سهل في نصر السنة قياما مؤزرا، وتردد الى المسكر في ذلك ولم يفد، وجاء الامر من قبل السلطان (طغرلبك) بالقبض على الرئيس القراتي، والاستاذ ابي القاسم القشيري، وامام الحرمين، وابي سهل ابن الموفق، ونفيهم ومنعهم عن المحافل. وكان ابو سهل غائبا في بعض النواحي، فلما قرأ الكتاب بنفيهم اغرى بهم الغاغة والاوباش، فاخذوا بالاستاذ ابي القاسم القشيري والقراتي يجرونهما ويستخفون بهما، وحبسا بالقهندز. (واما امام الحرمين

(١) في ترجمة محمد بن هبة الله بن محمد بن الحسين الامام الكبير ابو سهل جزء (٣) صفحة ٨٥ و ٨٦

فانه كان احس بالامر فاختفى وخرج على طريق كرمان الى الحجاز) وبقيا في السجن متفرقين اكثر من شهر

وفي شرح الاقناع [1] قال ابن عقيل : رأيت الناس لا يعصمهم من الظلم الا العجز ، ولا أقول العوام بل العلماء ـ كانت أيدي الحنابلة مبسوطة في ايام ابن يونس ، فكانوا يستطيلون بالبغي على أصحاب الشافعي في الفروع حتى ما يمكنوهم من الجهر بالبسملة والقنوت ـ وهي مسألة اجتهادية ـ فلما جاءت ايام النظام ، ومات ابن يونس وزالت شوكة الحنابلة ، استطال عليهم أصحاب الشافعي استطالة السلاطين الظلمة ، فاستعدوا بالسجن ، وآذوا العوام بالسعايات والفقهاء بالنبذ بالتجسيم ، (قال) فتدبرت أمر الفريقين ، فاذا بهم لم تعمل فيهم آداب العلم ، وهل هذه الا افعال الاجناد يصولون في دولتهم ، ويلزمون المساجد في بطالتهم ، اه

ولدينا من القصص في عجائب ماروى التاريخ من التعصب مالا يسعنا الا امساك القلم عن نشره إبقاء على هذه البقية الباقية ، وفي الاشارة ما يغني عن الكلم ، ولا حول ولا قوة الا بالله

وكل ذلك من التفرق الذي نهى عنه الدين ، لما يستتبعه من الازراء التي تعمل في اساسه المتين ، ويكفي ماجنت وتجني الامة من ويلاته الى هذا الحين ، حتى فشلت وذهب ريحها امام اعدائها الكافرين ، والمستعان بالله

(١) صفحة ١٣٠٩ من مطولات كتب الحنابلة في الفروع